

العوامل المؤثرة في تكوين فكر الجاحظ

محمود الأطرش

ان المتتبع للدراسات المعاصرة التي تناولت انتاج الجاحظ الأدبي والفكري ، يلاحظ أن هذه الدراسات قد اهتمت بجوانب عديدة من أدبه وانتاجه اهتماماً كبيراً ، وتوسعت في بحثها توسعاً ملحوظاً ، ولا غرو في ذلك ، فالجاحظ أديب أصيل من أدباء العربية ، وواحد من الأعلام البارزين في حياتنا الثقافية ، ومن الذين تركوا آثاراً حية في مختلف أنواع المعارف ، وأنماط الثقافات المعهودة في عصره ، حتى اعتبرت كتبه بحق موسوعة عصره . وهو ما زال رغم تباعد الزمن نبعاً ثراً للمعطام الأدبي والفكري ، وما تزال كتبه وأبحاثه مجالاً رحباً لاستجلاء جوانب هامة من جوانب الفكر والثقافة العربية .

وهذه الدراسة تستهدف دراسة النقد الأدبي عند الجاحظ ، دراسة شاملة ، وتسمى الى استنباط مذهبه النقدي . إذ أن هذا الأديب الكبير كان من أوائل النقاد العرب الذين خطوا بالنقد العربي القديم خطوة واسعة على طريق التطور ، ونقلوه من النقد الفطري القائم على الملاحظات السريعة والآراء المبسرة ، الى النقد المعلن ، وغذوا شجرته اليانعة بنسج جديد .

ونحن لا نرتاب في أن الجاحظ وقع تحت تأثير عوامل مختلفة ، وخضع لمؤثرات عديدة تركت آثارها في تكوينه الفكري ، وتربيته العقلية ، وانعكست على جميع انتاجه الأدبي والفكري . لهذا كان من متطلبات الأمور أن ننظر أولاً في هذه العوامل التي كان لها تأثير على حياة الجاحظ الفكرية والأدبية ، ليسهل علينا بعد ذلك تتبع مذهب في النقد الأدبي للوصول الى المرتكزات الأساسية التي قام عليها مذهب النقدي ، لأنه كما قال شارل بلات « مدين بهذه المادة التي أودعها كتبه ، وهذه الأفكار التي عالجها ، والأحاديث التي رواها ، والأبيات العديدة التي استشهد بها ، وكل هذه المعرفة المتواضعة القوية التي تقوم عليها كتبه ، أقول أنه مدين بكل هذا الى تكوينه العقلي

والديني ، كما أنه مدين الى بطائنه وحاشيته بجميع الطبائع الانسانية التي وصفها ، واللوحات التي صورها بريشته الماهرة ، والملاحظات الدقيقة التي زين بها كتبه» (١) . نفهم من هذا ضرورة التعرف على المؤثرات التي عملت في فكر الجاحظ ، والسبل التي سلكها وياشرها في حياته ، حتى تهين له ثروة غنية في مختلف مجالات المعرفة ، أغنت آراءه وأنضجت معايير النقدية ، وكان لها أكبر الأثر في تحديد اتجاهاته النقدية ، ومن أهم هذه العوامل :

١ - البيئة التي نشأ فيها : اذ أن البيئة تعتبر من العوامل الهامة المؤثرة في تكوين فكر الانسان وتوجيه نوازعه ، لهذا كان لا بد من العودة الى عصر الجاحظ وبيئته التي ترعرع فيها لنرى مدى تأثيره بمعطيات عصره ، وواقع بيئته الاجتماعية والثقافية . ونحن نقرر مسبقاً أن ثمة دراسات عديدة وقيمة تناولت زمن الجاحظ وبيئته ونتاجه الأدبي والعلمي ؛ وقد يكون أهم ما كتب في هذا الموضوع ما خلفه المستشرق شارل بلات ، وطه العاجري ، وشفيق جبيري ، وكل ما نرمي اليه عند كلامنا في هذا الموضوع هو التذكير بما يمكن أن يلقي أضواءً على تكوين شخصية الجاحظ الأدبية ، وذوقه النقدي .

وتفيدنا الدراسات الأدبية التي تناولت عصر الجاحظ ، أنه ولد في حي فقير من أحياء مدينة البصرة ، ولم تثر ولادته أي اهتمام يساعد على تحديد زمنها ، شأنه في ذلك شأن العديد من رجال الفكر والأدب ، وهذه إحدى المشكلات التي تصادف الباحث في حياة العديد من الرجال في تاريخ العرب القديم ، لهذا فلا غرابة اذا تضاربت الروايات حول ولادة الجاحظ (٢) .

والذي يعنيننا من تحديد زمن ولادته ، أنها رافقت بداية عهد عاشت فيه البصرة فترة هدوء نسبي . وهذا ما أشار اليه شارل بلات بقوله : « البصرة ستعيش قرابة قرن أي الى ثورة الزنج سنة ٢٥٥ هـ في هدوء نسبي لا يعكره سوى بعض الحركات الخارجية الفاشلة ، ومع أن الحروب والثورات لم تنقطع ، فانها قد انتقلت عند البصريين الى ميادين أقل فظاعة ، هي ميادين العلم واللغة والشعر والأدب ، حيث سطعت أسماء أشهر رجال التاريخ الأدبي عند العرب » (٣) .

اذن فترة حياة الجاحظ كانت فترة استقرار سياسي ، وازدهار حضاري ، وتقدم ثقافي ، مما

١ - راجع الجاحظ . لشارل بلات ص ١١ . ترجمة ابراهيم كيلاني . ط ١ - دمشق ١٩٦١ م .

٢ - اختلفت الروايات في تحديد زمن ولادة الجاحظ ، فكانت سنة (١٥٠ - ١٥٩ - ١٦٠ - ١٦٣ - ١٦٤ - ١٦٥) ، غير أن بعض الباحثين رجحوا أن تكون حوالي ١٦٠ هـ ٧٧٦ م ووفاته سنة ٢٥٥ هـ - ٨٦٨ م . وجاء هذا الترجيح لدى شارل بلات اثر مناقشة موضوعية للروايات المتعددة . راجع ذلك في (الجاحظ) ص ٩٢ . ترجمة ابراهيم كيلاني .

كما أن محمد كرد علي ذهب الى هذا الاستنتاج حين قال : « ولد في البصرة حوالي سنة ستين ومائة ، وتوفي والده وهو طفل » . راجع أمراء البيان ج ٢ . ص ٢١٦ القاهرة ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٧ م .

٣ - راجع الجاحظ ص ٨٧ . ترجمة ابراهيم كيلاني . ط ١ . دار اليقظة العربية للتأليف والنشر .

ساعد على تقدم الدراسات في مختلف مجالات العلم والأدب ، وهيات فرصاً ليجدد الأدباء والنقاد من أدواتهم ومعاييرهم النقدية بما يتناسب وهذا الواقع الحضاري والثقافي .

فعاد الأدباء ورجال العلم الى مصادر الثقافة العربية ينهلون من ينابيعها ، والى ثقافات الأمم الأخرى يترجمون عنها الى اللغة العربية ، ليتولد من هذا التماذج بين الثقافة العربية والثقافات الأخرى ينبوع ثر للعطاء الحضاري والثقافي . ماهياً فرصة كبرى للجاحظ الذي كان مولعاً بالاطلاع على كل ما يقع بين يديه من كتب وأوراق ، والاطلاع على أكبر قدر من الملاحظات النقدية ، التي أطلقها الشعراء والأدباء حول تقويم الأدب منذ الجاهلية وصدر الاسلام ، (٤) ، وكانت أساساً لا بد منه لتكوين ثقافته النقدية .

أما الواقع الثقافي في البصرة ، فقد كان واقعاً متصوراً له أصوله وجذوره التي استخدمها من تماذج ثقافات عدد من الشعوب الساكنة ربوع هذه المدينة . فقد كان يعيش فيها الى جانب السكان العرب ، سكان من النبط ، واليونانيين والفرس والهنود ؛ ومنهم الزط والسيابجة ، وأقوام من الزنج . فتشكل في البصرة هذا المزيج من العناصر العرقية ؛ فتمازجت العادات والتقاليد والأعراف ، هذا اضافة لكونها ميناءً بحرياً يفشها أصناف من شعوب الشرق والغرب للمتاجرة .

وتأثر آداب الأمم ببعضها أمر عادي ومألوف ، وهو من الظواهر البارزة في كل حضارات الأمم والشعوب : فليس ثمة أدب من الآداب حافظ على استقلاله وكيانه القومي المحض ، وان كان هذا التأثير والتأثر يختلف بين ثقافة وأخرى ، من حيث شدته أو ضعفه ، غير أنه موجود ومألوف .

وهكذا فقد خضع المجتمع البصري لتأثير تراث قديم لثقافات حية من يونانية وكلدانية ، وفارسية ، وهندية ، مازجت الثقافة العربية المتطورة ، وتعاليم الاسلام الجديدة ، وجرى صراع الأقوام العرقية والفئات المتقاتلة يومذاك ، صراع من آخر يمكن أن نتوسع في التعبير ونسميه صراع الحضارات ، وتمازج الثقافات . هذا الصراع الحضاري شكل الوجه الآخر لمدينة البصر ، وظهرت به كأهم حاضرة من حواضر الثقافة العربية خلال القرن الثاني للهجرة ، حيث انتقل الصراع من ميادين الحرب ، وساحات الوغى ، الى حلقات المسجدين ، وندوات المريدتين ، ومساحات المتكلمين ، وحوار الفرق المذهبية . ومن خلال هذا الصراع بدأت العقلية البصرية تتضح وتتبلور سماتها ، وتشكل أبعادها ، لترقد العقل العربي الاسلامي بالكثير من مقوماته الفكرية ، وأعظم مشخصاته الثقافية (٥) ، وكان ذلك فاتحة لتجديد واسع ، فنشأت مذاهب جديدة في صناعة الشعر ،

٤ - جمع الجاحظ في كتابه « الحيوان - والبيان والتبيين » طائفة كبيرة من الآراء النقدية والأحكام الأدبية ، لعدد كبير من الشعراء والأدباء والنقاد ، عبّر من خلالها عما كان يدور بين معاصريه من نشاط نقدي وفكري .

٥ - وصف أحمد كمال زكي أدب البصرة بقوله : « فليس أدب البصرة من كل الوجوه كالأدب الذي عرفته جزيرة العرب منذ القديم ، ولكنه أدب اتصل بفنون غربية قديمة ، وخالط حضارات عتيقة ، وتلون ألواناً نجمت عن ايدولوجيات مختلفة » . راجع الحياة الأدبية في البصرة ص ٦٠ ، ط ٠ دار الفكر - دمشق ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م .

مثلاً : مسلم بن الوليد ، وأبو تمام ، وابن المعتز ، كما انصب تجديد بعض الشعراء على موضوعات الشعر ، ومثل هذا الاتجاه : أبو نواس ، وبشار بن برد ، وابن الرومي ، والبحتري .

فثمة حركة ثقافية واسعة في البصرة ، وثمة مدارس وجدال ، واحتكاك وصراع ، كل هذا كان لا بد وأن يترك أثراً كبيراً ومباشراً في فكر الجاحظ وتكوينه العقلي . سيما وأنه كان مطوياً لمعطيات عصره ، ومن أشد الناس تأثراً بواقعه الثقافي والفكري ، أخذاً بجوانب التطور والتجديد في مفاهيم الأدب والنقد ، وصفة الطواغيت هذه تعتبر من أبرز خصائصه كما يقول طه الحاجري « وكان من أبرز خصائصه هذه الطواغيت لعصره ، والبيئة التي يحيا فيها ، فهو في حقيقة الأمر صورة بصرية كاملة تتمثل فيه هذه المدينة بنواحيها المختلفة ، ومهما يكن في الجاحظ من تناقض أو تعارض ، فإنما يرجع الى تناقض مظاهر الحياة في هذه المدينة ، فهو قد تأثر بها تأثراً كاملاً ، إذ قد أتيت له بطبيعته الخاصة ، وطبيعة الظروف التي أحاطت به ، أن يعين عيشاً حقيقياً ينفذ الى بواطنها ، وتنفذ الى بواطنه » (٦) .

وهكذا نرى أن للبيئة أثر بيناً في تكوين فكر الجاحظ ، وبلورة شخصيته مساعد على ذلك ولله الشدائد بالمطالعة وحس البحث ، وطواغيت لعصره وميله الفطري الى الأخذ بمعطيات العصر المتجددة ، مما سترك غواهر بارزة في آرائه وأحكامه النقدية ، تتميز بالابداع والتجديد في مقاييس النقد ومصطلحاته ، ورفضه للروايات التي لا تنسجم مع العقل والمنطق .

٢ - أثر المريد في تكوين فكر الجاحظ :

معروف شأن الأسواق الأدبية في بناء الثقافة العربية عامة والنقد الأدبي بخاصة (٧) ، ولنا أن نتذكر سوق عكاظ وغيره في الجاهلية ، وما كان لها من الأهمية في الحياة الأدبية ، ونستطيع أن نقدرها حق قدرها اذا علمنا أنه كان يعقد في كل عام عدد من الأسواق ، يستمر انعقادها أياماً ؛ فسوق عكاظ كان يمتد لمدة عشرين يوماً ، تلقى خلال هذه الأيام أعداد كبيرة من قصائد الشعر ، والخطب ، ويتصدى النقاد والشعراء لنقدها وتقريرها ، ولنا أن نتصور كم من الملاحظات النقدية والأحكام الأدبية كانت تقال حول هذه القصائد ، وكم من الخلافات الفنية ، كانت تثار حول الشعر والشعراء لنذكر مدى اسهام الأسواق الأدبية في حياة النقد الأدبي وتطوره .

والمريد لم يكن شأنه في البصرة الاسلامية بأقل من شأن عكاظ في الجاهلية ، فقد كان ملتقى للأدباء والشعراء ، واللغويين والنحاة ، وكان سوقاً لتبادل الآراء والأفكار ، تقام فيه المناظرات ، وتلقى فيه الخطب وقصائد الشعراء ، وتعقد في جنباته الندوات الفكرية .

٦ - راجع الجاحظ : حياته وآثاره ، لطلح الحاجري ، ص ١٥ ط - ثانية .

٧ - يمكن الرجوع الى « الحياة الأدبية في البصرة لأحمد كمال زكي ، والجاحظ لشارل بلات ترجمة ابراهيم الكيلاني ، وامجد الطرابلسي في كتابه : La Critique poétique des Arabes , P. 5 .

ولنا أن نتذكر ما كان يجري بين شعراء النقائض الثلاثة ، جرير ، والأخطل ، والفرزدق ، لندرك مدى اسهام المربد في اشاعة الأدب بين الناس ، ومدى اسهامه في توجيه الأفكار والآراء النقدية ، وأثره الكبير في تلوين النقد الأدبي بلون سياسي ، وتطعيمه بطعم جديد .

وقد لازم الجاحظ ندوات المربد ، وحضر مهرجاناته الأدبية ، وتأثر بما سمع من آراء وأحكام في نقد الأدب وتقويمه ، كما وسع معارفه وثقافته العربية . ولا يغرب عن بالنا دور أعراب البادية وأثرهم في ثقافة الجاحظ . فقد تلقف عنهم فصاحة اللغة العربية ، وشواهد أشعارها . وكان هؤلاء البداءة يعتبرون في نظر علماء اللغة شهود الماضي ، وحفظة اللغة سليمة نقية لبقاتهم بعيدين في بواديهم معزل عن التأثير الأجنبي في ألسنتهم ولغتهم ، فصانوا اللغة العربية وحفظوا صفاءها . وكان الجاحظ على اتصال بهم في حلقات المربد وندواته ، أو في الاختلاط معهم في بواديهم . مما ترك آثاراً كبيرة في ثقافته ومعارفه مزجها مع معطيات الثقافات الأخرى ، وكون لنفسه شخصية بارزة في مجالات العلم والأدب تتميز بسعة الاطلاع ، والدقة في استخلاص الأحكام .

وقد أشار بلات الى دور المربد وأثره في ثقافة الجاحظ حين قال : « والى جانب هذا كانوا يبيعون أيضاً في المربد بضائع لا تقدر بثمن ، كانوا يبيعون الشعر واللغة والحديث والنحو والأخبار . ففي هذا الوسط السوقي كان الشعراء يفدون لتلاوة قصائدهم ، فينقل البدو الى النخلة واللغويين ورواة الشعر وحفظته الشواهد والكلمات النادرة ، وقواعد اللغة البدوية الجميلة . في هذا الوسط تدرس الجاحظ بلغة الصحراء الصافية وزادت معارفه في العربية وملك ناصية اللغة والفصاحة .

٣ - حلقات المسجدين ثالث العوامل المؤثرة في فكر الجاحظ ، فالى جانب المربد كان الجاحظ يلزم حلقات المسجدين ، وله بينهم أصحاب وأصدقاء ، يحضر حلقاتهم ، ويستمتع الى ما يدور فيها من حوار ونقاش يتناول مختلف شؤون العلم والمعرفة ، تارة يدور الحوار حول الحديث النبوي ، وأخرى حول الشعر والشعراء ، كما كانت تقص القصص ، وتحكى الحكايات عن الشعوب الغالية ، والأقوام البائدة ، اضافة الى علوم اللغة وتفسير القرآن .

وكانت هذه الحلقات تشكل الوسط الطبيعي لطرح المسائل العلمية والأفكار الفلسفية والأدبية ، وقد نظر اليها الناس في ذلك العصر على أنها النظام الأمثل ، والوسيلة الأفضل لنشر المعارف واذاعتها بين طبقات المجتمع . وكان يجري في هذه الحلقات صراع عنيف بين أصحاب المذاهب والفرق ، ويسود جدال حاد ، فهي في واقع الأمر مدارس للتدريب على مختلف النشاطات الفكرية والعلمية والأدبية والدينية ، وقد وفّت بأغراضها من حيث تكوين فكر بصري متميز له ثقله في مجرى الثقافة العربية كلها في ذلك العصر ، فكانت البصرة والكوفة ثم بغداد أهم حواضر الثقافة والعلم في ذلك التاريخ .

ولا غرابة في هذا فالمسجد كان يمثل الحياة الثقافية والعقلية للمجتمع البصري ، تمثيلاً

صادقاً ، وكان المتحدثون في حلقاته من عناصر وأقوام مختلفة من المهتمين بشؤون الأدب وتقويمه ، أو المختصين بشؤون الدين وعلوم القرآن والحديث النبوي وما يتصل بذلك من علوم اللغة العربية وآدابها ، ومن عناصر تشقت بالثقافة اليونانية التي قوامها الفلسفة والمنطق أو الثقافة الهندية والفارسية الى جانب المعارف والثقافة العربية المتنامية ، كان ذلك كله هو الغذاء الذي تغذى به الجاحظ ، وتأثر به . فكان ملازمته المساجد والمسجدين أثر كبير في توجيهه وتنمية مواهبه ، وزاده ذلك اطلاعاً على المحصول النقدي الموروث ، مما وسع ثقافته النقدية ، وأغنى معارفه الأدبية ، وزاد من تجاربه الاجتماعية والانسانية . فجاء عقله عقلاً فذاً علمياً منطقياً تجريبياً . واننا لنلمس أثر هذه الخصائص العقلية في مختلف نتاجه ، وبخاصة في آرائه النقدية ، وأحكامه الأدبية .

٤ - أساتذة الجاحظ وأصدقاؤه :

رأينا أن الجاحظ كان يلتقي أصدقاؤه في حلقات المسجدين ، يناقشهم ويتبادل معهم الحديث حول مختلف الشؤون والقضايا المطروحة ، وقد اتصل بعظماء ورؤساء من رجالات الدين والأدب والعلم ، مثل الأصمعي ، وأبو زيد الأنصاري ، وأبي عبيدة معمر بن المثنى ، الذين قال عنهم السيوطي : « وكان في العصر ثلاثة هم أئمة الناس في اللغة والشعر وعلوم العرب ، لم ير قبلهم ولا بعدهم مثلهم ، عنهم أخذ جل ما في أيدي الناس في هذا العلم ، بل كله ، وهم أبو زيد الأنصاري ، وأبو عبيدة ، والأصمعي » (٨) . وهؤلاء الثلاثة كانوا من أخص أساتذة الجاحظ في الشعر والأدب ، ومن أشهر أصدقائه ، وقد أسهموا الى حد بعيد في توجيه ثقافته ، وتكوين أفكاره في علوم اللغة والأدب .

كما أن الجاحظ تأثر تأثراً بعيداً بأستاذه آخرين من أكبر أساتذته هما : الأخفش الأوسط ، والنظام ، وكان على اتصال دائم بهما ، مما أفاده فائدة جلي جعل ياقوت الحموت يقول : « أن الجاحظ أخذ النحو عن الأخفش ، وأخذ الكلام عن النظام ، وتلقف الفصاحة من العرب شفاة بالمربد » (٩) .

وغني عن القول أن الجاحظ كان من أصحاب الاعتزال ، بل من أئمة المعتزلة ومن رؤسائهم ، وسميت فرقة من فرقهم بالجاحظية نسبة الى الجاحظ . وكان المعتزلة يحتكمون الى العقل في كل شيء ويخضعون الأمور الى النظر العلمي والتحقيق التجريبي ، ويشكون بالأمور قبل الوصول الى مرحلة اليقين ، وكلمة النظام معروفة ، فهو القائل : « تعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً » (١٠) . وكان لفرق المعتزلة شأن كبير في شؤون الدين والمجتمع والفلسفة ، وتنامي هذا الشأن في عصر الخليفة المأمون ، الذي اعتنق مذهب الاعتزال وشجعه . وقد كان للنظام أستاذ الجاحظ ولفرق

٨ - راجع المزمهر : ج ٢ ص ٢٤٩ .

٩ - راجع معجم الأدباء لياقوت : ج ٦ ص ٥٦ .

١٠ - راجع الحياة الأدبية في البصرة ص ١٤٩ ط . دار الفكر . دمشق ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م .

المتزلة آثار واضحة وسمت حياة الجاحظ الفكرية والأدبية بسمات بارزة . وكان من أظهر هذه السمات ، الأسلوب الجدلي ، والاحتكام للعقل والمنطق ، واتخاذ النهج العلمي أسلوباً اعتمده في معظم القضايا التي عالجها .

واتصل الجاحظ برجال وأساتذة عديدين ، غير ما ذكرنا ، من هؤلاء صالح بن جناح اللخمي الذي أخذ عنه الحكمة ، وشمامة بن أشرس التميري المتكلم الذي أخذ عنه علم الحديث ، ويزيد بن هارون ، والقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم .

وروى عن الجاحظ ، وتلمذ على يديه كثير من رجال الفكر والأدب منهم : أبو داود السجستاني ، ومحمد بن عبدالله بن أبي الدلها ، ودعامة بن الجهم ، وأبو سعيد العدوي ، وأبو العباس المبرد ، ويموت بن المزرع . وغير هؤلاء وأولئك ممن أخذ الجاحظ عنهم ، ومنهم نجم وظهر ، والذين أخذوا عنه الحديث والأدب والمعارف الأخرى . فكان له دور في كل حلقة من حلقات البصرة في مردها ومسجدها ، وكان يناقش مع هؤلاء الأعلام مختلف شؤون المجتمع والدين والسياسة ، التي كانت تطرح وتشغل الأذهان في ذلك العصر الذي كثرت فيه المنافسات والخلافات العرقية ، والمنازعات القبلية ، واضطربت نار الممارك الكلامية بين الفرق المذهبية المتباينة ، مما ترك أبلغ الأثر في حياة الجاحظ وفكره .

٥ - مطالعات الجاحظ :

رأينا في الفقرات السابقة أنه تهيأت للجاحظ عوامل خارجية أثرت في حياته الثقافية ، وساهمت في صقل مقوماته العقلية ، وساعدت على تفتح مواهبه ، ونضج أفكاره ، وتوسيع مداركه ، وتعميق جوانب عبقريته . وثمة عوامل ذاتية لا تقل في أهميتها عن تلك العوامل الخارجية . فقد علمنا أن الجاحظ كان مولماً بالمطالعة ، شغوفاً بالعلم ، محباً للأدب ، وكانت مطالعاته عاملاً من أقوى العوامل التي أثرت في حياته . فترك آثارها البعيدة في تكوين مقوماته العقلية والوجدانية ، وطبعته بطابع خاص تميزت بها شخصيته ، وتميز بها إنتاجه كله .

فقد اطلع اطلاعاً واسعاً وعميقاً على معطيات الثقافة العربية ، وحفظ أشعارها وشواهدنا ونوادرها ، واكتسب مهارة فائقة في استخدام اللغة وتصريف ألفاظها والتحكم بمعانيها ، ومدلول عباراتها ، مما دفع أحمد أمين إلى القول « لعل الجاحظ كان أكثر أهل زمانه اطلاعاً على أنواع المعارف المعهودة في زمنه ، فهو في الأدب مطلع أتم الاطلاع على الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي وشعر المحدثين ، ومطلع على أخبار العرب وخطبهم ونصيح قولهم ، وعلى الجملة فقد جمع الجاحظ في عقله كل ثقافة عصره ، وقل أن يكون له نظير » (١١) . وإن ما أورده في البيان والتبيين من خطب العرب وأشعارهم ونوادهم يشير بوضوح إلى اطلاعه الواسع على الأدب العربي ، كما يشير إلى

حسن اختياره للنصوص الجيدة البليغة مما يدل على أنه اكتسب حاسة نقدية كبيرة ساعدته على فهم هذا الأدب وتقويمه ، واطلع أيضاً على فلسفة اليونان ، وثقافة الهند ، وآداب الفرس ، وألم بمعطيات الثقافات القديمة . فناقش أرسطو في كثير من آرائه ، واستشهد بشواهد من أدب الفرس ، وكلمة الهند ، وقارن بلاغة العرب مع بلاغة الأقوام الأخرى . قال في عرضه لمطاعن الشعوبية على العرب : « ومن أحب أن يبلغ في صناعة البلاغة ، ويعرف الغريب ، ويتبحر في اللغة فليقرأ كتاب « كاروند » . . . فهذه الفرس ورسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها ، وهذه يونان ورسائلها وخطبها وعللها وحكمها ، وهذه كتبها في المنطق التي قد جعلت الحكماء بها تعرف السقم من الصحة ، والخطأ من الصواب ، وهذه كتب الهند في حكمها وسيرها وعللها . فمن قرأ هذه الكتب عرف تلك العقول ، وغرائب تلك الحكم ، وعرف أين البيان والبلاغة وأين تكاملت تلك الصناعة » (١٢) .

ومن المميزات التي اكتسبها الجاحظ من مطالعته الكثيرة ، أن ثقافته لم تقتصر على علم واحد من العلوم الشائعة في عصره ، كما كان يفعل كثير من معاصريه ، بل نراه يعتبر ذلك نقصاً وعيباً . فقد أرسل رسالة وجهها الى المعتصم ينصحه فيها بتأديب أولاده . وهو يرتأي في هذه الرسالة أن يؤدب الخليفة ولده بكل أدب ، قال : « فانك ان أفردتهم بشيء واحد ثم سئلوا عن غيره لم يحسنوه » (١٣) . وطبق الجاحظ هذا الرأي على نفسه ، فكانت له جولات وصولات بعيدة في مختلف ميادين العلم والمعرفة . فله كتابان في « نظم القرآن ، ومسائله » (١٤) . وله آراء حول الحديث النبوي (١٥) ، وقيل انه اهتم بالقراءات نسبياً (١٦) ، وكتبه في فنون العلم والأدب معروفة لا يحفلها أحد ، فقد كان أديباً كبيراً وباحثاً ضارب في الأبحاث الاجتماعية والأدبية بباع طويلة . وآثاره في : البيان والتبيين ، والحيوان ، والبغلام وغيرها أوضح شاهد على تنوع معارفه ، وتشعب ثقافته .

الخصائص العامة لفكر الجاحظ :

من المفيد لبحثنا بعد أن تحدثنا عن العوامل المؤثرة في تكوين فكر الجاحظ ، أن نصل الى الغاية التي استهدفناها من وراء هذا الفصل ، وهي تحديد الخصائص العامة التي تميز بها عقل الجاحظ ، والتي كانت بعد ذاتها انعكاساً لتلك العوامل والظروف التي أحاطت بالتكوين العقلي للجاحظ ، ليكون لنا من ذلك الأساس النظري الذي يجعل بحثنا واضح المعالم ، ويسهل علينا ربط

١٢ - راجع البيان والتبيين . ج ٣ . ص ٦ - ٧ .

١٣ - راجع أمراء البيان : لمحمد كرد علي .

١٤ - الكتابان هما « نظم القرآن ، ومسائل القرآن » الا انهما مفقودان حتى الآن .

١٥ - راجع شارل بلات في (الجاحظ) ترجمة ابراهيم كيلاني ص ٢٩٠ وادب الجاحظ للسندوبي ص ١٠٤ - ١٠٩ .

١٦ - راجع أمراء البيان ، والحياة الأدبية في البصرة لأحمد كمال زكي .

المعايير النقدية التي حكم بموجبها الجاحظ على الشعر والشعراء ، والأدب والأدباء ، والخصائص العامة التي سمت فكره بسمات بارزة أهمها :

١ - تأثيره بروح العصر :

فقد كان الجاحظ يمثل عصره أصدق تمثيل ، ويتأثر بمعطيات بيئته الى أبعد حدود التأثير . « فإذا وجد أن الأدب المجرد مذهب من المذاهب المستفيضة في عصره ، أخذ به ولم يتورع » (١٧) . وهذه الطوعية للعصر ، وللاتصال الوثيق بالمجتمع جعلاه أكثر انفتاحاً ، وأشد ميولاً للأخذ بمذاهب التجديد والتطور ، وكانت هذه من أبرز صفاته الفكرية والأدبية ، فكما حاول أبو نواس أن يجدد في موضوعات القصيدة العربية ، وحاول مسلم بن الوليد أن يقعد قواعد ، ويوصل أصولاً لمذهب البديع في الشعر العربي ، والذي أخذ به أبو تمام فيما بعد ووصل بهذا المذهب الى شأوه وغايته ؛ فان الجاحظ كان ينزع الى التجديد والابداع في أبحاثه وأحكامه الأدبية ، فتناول أبحاثاً في عيوب اللسان مثل : التعمته ، والنمنمة ، والحبسة ، والرتة ، والعجلة ، والفاقة ، واللثغة . وبحث في مخارج الحروف وأصواتها ، وتأثير اللغات الأعجمية وتداخل حروفها وأصواتها مع أصوات الحروف العربية (١٨) . مما كان له تأثير مباشر في تطوير مذاهب النقد الأدبي وتوسيع آفاقه .

ومن خصائص فكر الجاحظ أنه فكر تأملي تجريبي ، يستند الى المنطق والبرهان . فلم يكن يكتفي بما يحصل عليه من معلومات نتيجة مطالعته الواسعة ، ولم يكن ليقتنع بأراء معاصريه وسلفه ، بل يخضع هذه المعلومات لسلطان العقل ، ولمقاييسه وتجاربه العملية ، أو يعايشها في الحياة الاجتماعية ليصل الى أصول ثابتة دقيقة يبني عليها آراءه وأفكاره في فهم الأدب ونقده ، وفي المسائل العلمية الأخرى . « فكان في علمه يبني على أصول معينة وصولاً الى الحقائق ، وكان في دينه يعمل عقله في التفسير والتأويل دون أن يكون لأحد سلطان عليه ، وكان في نقده على نحو ما رأيناه في علمه ، توخى الحقائق مهتماً بالفن الاهتمام كله » (١٩) .

ومن مقومات فكر الجاحظ : أنه كان يطابق بين الأدب وواقع الحياة ، ويتخذ من معطيات الواقع رائزاً لكثير من معانيه ومقاييسه النقدية ، وتمثل ذلك خير تمثيل بمقولته « لكل مقام مقال » .

أما نزوعه الى الجدل والشك بالأمر ، والاستقلالية في التفكير فقد كانت نتيجة لاشتغال نار الجدل والمناقشات الحامية حول قضايا الدين والأدب والعلم والفلسفة كما مر معنا . حتى أصبحت خصائص لتفكيره فأصبح يشك بكثير من الروايات التي تروي شعراً قيل على السنة الفيلان والسعالي ، ومن أقواله في ذلك « وربما كان في الجنس ، أو أصل الطبيعة نفاقاً كذاباً » ، وصاحب تشنيع

١٧ - راجع : الجاحظ معلم العقل والأدب لشفيق جبري ص ٢١٧ - ٢١٨ - ط . دمشق ١٣٥١ هـ ، ١٩٣٢ م .

١٨ - راجع : البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٢٠ وما بعدها الى ص ٥٥ ط . دار الفكر للجمع .

١٩ - راجع : الجاحظ معلم العقل والأدب لشفيق جبري ص ١٤١ - ١٥٧ نفس الطبعة .

وتهويل ، فيقول في ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة ، فعند ذلك يقول : رأيت الغيلان ، وكلمت السملاة ، ثم يتجاوز ذلك الى أن يقول : قتلتهائم يتجاوز ذلك الى أن يقول : رافقتها ، ثم يتجاوز ذلك الى أن يقول : تزوجتها •

قال عبيد بن أيوب :

قلله در الغول ، أي رفيقة لصاحب قفر خائف متنفر وقال :

أهذا رفيق الغول والذئب الذي يهيم بربات الجمال الهواكل وقال آخر :

أخو قفرات حالف الجن وانتفى من الانس حتى تقضت وسائله له نسب الأنسي يعرف بخله وللجن منه خلقسه وشمائله

ويعمل الجاحظ ذلك فيقول : « وما زادهم في هذا الباب وأغراهم به ، ومد لهم فيه ، أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار وبهذه الأخبار ، الا أعرابياً مثلهم ، والا غيباً لم يأخذ نفسه لتمييز ما يوجب التكذيب والصديق ، أو الشك ، ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت في هذه الأجناس قط ، وأما أن يلقوا رواية شعر ، أو صاحب خبر ، فالرواية عندهم كلما كان الأعرابي أكذب في شعره كان أطرف عندهم ، وصارت روايته أغلب ، ومضاحيك حديثة أكثر ، فذلك صار بعضهم يدعي رؤية الغول ، أو قتلها ، أو مرافقتها ، أو تزويجها ، وآخر يزعم أنه رافق في مفازة نمرأ ، فكان يطاعمه ويواكله» (٢٠) •

فالجاحظ يرفض ما لا ينسجم مع منطق العقل ، وقد هاجمه كثير من معاصريه لهذه الأسباب (٢١) •

وخلاصة القول أن هذه الخصائص العقلية التي امتاز بها الجاحظ ، كانت انعكاساً لثقافته وطبائعه ، قد تركت أثراً عميقاً المدى في مجمل نتاجه الأدبي والفكري ، ومنها النقد الأدبي والحكم على الشعر والشعراء ، وما أطلقه من آراء حول اللغة والأدب عامة •



٢٠ - راجع : الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ٧٨ •

٢١ - راجع للمزيد من الاطلاع على موقف خصوم الجاحظ (أدب الجاحظ) للسندوبي ص ٤٥ - ٥٦ ط ١ • المطبعة الرحمانية بمصر •